

كما كنت أظن أن أدباءنا بعد أن قرءوا ما كتب الجاحظ وأمثاله قد اقتنعوا أن لامكان في البلاغة للمتكلمين المتميزين.

غير أن هذا الظن كان مسرفاً في التفاؤل، فلا تزال الصحف تطالعنا في الحين بعد الحين بكلمات جامدة لاروح فيها ولا ماء، أبرز صفاتها الغموض، وأول ما تدل عليه التكلف والمعانات، وأعدل حكم عليها ما حكم به النقاد من القدماء على أمثالها.

فقد أشبع النقاد أبا علقمة النحوي سخرية، قالوا إنه شهد عند بعض الأمراء بأن حبشياً شج رأس صقلبي، فأغرب في شهادته، ولم يفهم الأمير منها شيئاً، فكشف الأمير رأسه وقال للصقلبي: شجني خمساً، وأعفني من شهادة هذا.

ووصف أبو علقمة - في بعض مواضعه - مع أنه كان عالماً باللغة العربية، وصف بأن شيطانه يتكلم بالهندية، وقد عده بعض المؤلفين في الثقلاء.

وذكر الجاحظ أن العلماء يديرون في كتبهم كلاماً غريباً لو خوطب به الاصمعي لجهل بعضه، ثم قال: فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة، فقد باعده □ من صفة البلاغة والفصاحة وإن كانوا إنما دونوه في الكتب، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب، فأبيات من شعر العجاج، وشعر الطرماح، وأشعار هذيل تأتي لهم - مع حسن الرصف - على أكثر من ذلك. وهذه العبارات التي علق عليها الجاحظ من كلام يحيى بن يعمر، وقد قال: ليس في هذا الكلام شيء من الدنيا إلا أنه غريب. ولقد العبارات التي علق عليها الجاحظ من كلام يحيى بن يعمر، وقد قال: ليس في هذا الكلام شيء من الدنيا إلا أنه غريب.

كما استوقفني قوله في الغريب: وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من دأبهم (1)، وهذا القول يدل على أن هذا الكتاب العظيم تنبه إلى أن للأسلوب صلة قوية بأخلاق الكاتب، بل هو يرى أن الأسلوب يكون من أخلاق الكاتب، أو لا يكون من أخلاقه.

(1) البيان والتبيين ج 1 ص 378، 379، ط: هارون.